الفقه و القضاء المالكي في الجزائر خلال العهد العثماني
قراءة في مخطوطة للشيخ أبي راس الناصر المعسكري
"نظم عجيب في فروع قليل نصها مع كثرة الوقوع "

أ تقي الدين بوكعبر
كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإسلامية جامعة أحمد بن بلة وهران 01

راج خلال التواجد العثماني بالجزائر كتب الفقه و فروعه و بحكم كون الجزائريين مالكيين فقد شاع المذهب المالكي بين عامة الناس و أصبح هو المرجع و أصبحت كتب الفقه المالكي من مختصر خليل و رسالة ابن زيد القيرواني و غيرهما مصدر الفتوى ، برز علماء أجلاء ذاع صيتهم في المشرق و المغرب منهم الإمام الونشريسي صاحب كتاب "المعيار" و العلامة الرماصي صاحب الحاشية على شرح التتائي لمختصر سيدي خليل و أبو راس الناصر الراشدي المعسكري الذي تضلع في مختلف المذاهب حتى صار مسجده يعرف بقبة المذاهب الأربعة .

ولما وقعت بين يدي مخطوطة فقهية لأبي راس الناصري رأيت أن أنشرها و هذا من باب أحياء التراث الفقهي الجزائري و التعريف بعلماء الجزائر.

لا شك أن هذا العمل يدخل ضمن الحوار بين الماضي و الحاضر و المستقبل و هو حوار مستمر لا يتوقف و به تكمم أفواه من يدعى أن أجدادنا كانوا من الجاهلية بمكان وأنهم كانوا بعيدين عن أحكام الدين بل إن تراث علماء الجزائر الضخم لأقوى دليل على عمق انصهار الجزائريين بخاصة وشعوب المنطقة بعامة في الإسلام

ثم إن تراث هذا الرجل- أبا راس الناصر- لجدير بالدراسة و التحقيق و النظر و التدقيق لما حوته كتبه من مسائل فقهية و أخبار تاريخية مجتمعنا الحالي بحاجة للرجوع إليها .

1 التعريف بالمؤلف:

هو الإمام الحافظ الهمام و شيخ الإسلام ومفتي الأنام أبو راس محمد بن احمد صاحب المصنفات الشهيرة و التحقيقات الغزيرة ترجم لنفسه في كتابه فتح

الإله فقال :" فأنا عبد ربي محمد أبو راس بن احمد بن عبد القادر بن محمد بن احمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل وأن هذا النسب متصل إلى عمرو بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب و فاطمة بنت رسول الله صل الله عليه واله وسلم"[1].

ولد بالقرب من معسكر بين جبل كرسوط[2] و هونت[3] على ما قيده بنفسه في المصدر السابق وهذا سنة 1150 هـ الموافق لـ 1737 م في بيت علم وصلاح حيث كان أبوه احمد بن عبد القادر من القراء الماهرين مشهورا بالتقوى و الصلاح كما عرفت أمه زولة بالسخاء و الصلاح.

أخذ القران وأحكامه عن والده و شيوخ مسقط رأسه و أتقنهما حتى أنه كان يقرئ الكبار وهو لم يبلغ الحلم بعد قال في فتح الإله :" فقرأت القران في حال صغري ثم قرأت أحكام القران و حفظتها على ظهر قلب وان كانت رحلة حملني بعض الطلبة على أكتافه ومع ذلك أني أقرئهم أسلك لهم ألواحهم ".

بعد موت أبيه وأمه تكفل به أخوه الأكبر عبد القادر إلا انه كان فقيرا جيدا مما اضطر أبا راس على التوسل في البيوت حتى يأكل و يلبس وهو صغير قال عن نفسه في فتح الإله: "وقد استمررت عشر سنين عريانا لا لباس لي إلا خرق كالعدم وما لبست نعلا إلى أن قرب صومي ولما قدرت على السعي صرت اطلب من البيوت ثم أبيع و أكسي ".

رغم ظروفه القاسية إلا أنه لم ينقطع عن العلم و رحل إلى المشايخ طلبا في علو الإسناد حتى طار صيته و شدت إليه الرحال و صار مرجع زمانه و متولي خطة لقضاء بحاضرة أم عسكر يفتي وفق المذاهب الأربعة و إليك ما يقوله عن نفسه في فتح الإله:" أما الذي كان يفتي الناس بالمذاهب الأربعة الشيخ عبد العزيز الدريني و شيخ الإسلام ابن جماعة المقدسي ... و مؤلف هذا الكتاب محمد أبو راس" .

2 رحلاته العلمية :

خصص أبو راس الناصري الباب الثالث من كتابه فتح الإله لرحلاته العلمية و عنوانه "رحلتي للمشرق و المغرب و غيرهما ولقاء العلماء الأعلام وما جرى لي معهم من المراجعة و الكلام" امتدت هذه الرحلات عبر الجزائر و المغرب و تونس ومصر و الشام و الحجاز .

يمكن تقسيمها قسمين: قسم رحلات داخل الجزائر و قسم رحلات خارجها أما التي داخل الجزائر فتنطلق من معسكر باعتبارها مدرسته الأولي حيث منها توجه لمدرسة مازونة قال أبو راس: "ثم سافرت أول صومي لمازونة "[4] ثم توجه نحو الجزائر المحروسة سنة 1778 يقول عن هذه الرحلة: "فضيفني—يعني الفقيه محمد بن مالك- وجمع العلماء علي و تمادوا و سألوني أسئلة صعاب عظيمة فتفاوضنا فيها مفاوضة كبيرة إلى قرب الفجر "[5]. كذلك سافر الشيخ إلى قسنطينة— أو على حد تعبيره قسمطينة- حيث التقى بالشيخ عبد الكريم محمد فكون و أبي العباس الشيخ محمد العباسي[6].

أما رحلاته خارج الجزائر فكانت بدايتها إلى مدينة فاس سنة 1801 حيث اجتمع ببعض علمائها الشيخ منهم الطيب بن كيران[7] إمام أهل المغرب الأقصى في زمانه ثم ذهب إلى تونس حيث نزل عند شيخها المفتي محمد بن المحجوب[8] ، من تونس ركب البحر نحو مصر حيث التقي بشيخه الإمام اللغوي و المحدث صاحب التصانيف الشهيرة مرتضى الزبيدي فقرأ عليه و إستجازه فأجازه في الصحيحين و غيرهما من الكتب.

كما لقي الشيخ عصمان الحنبلي في الحجاز و قرأ عليه المذهب الحنبلي[9] بل كانت له مناظرات مع بعض شيوخ الوهابية في الحرمين وهذا في حجته الثانية سنة 1226هـ/1811م.ثم رحل نحو الشام وناقش بعض علمائها في قضية الحبس حيث رجعوا إلى رأيه ثم رحل نحو الرملة احدي مدن فلسطين و لقي مفتيها و علمائها فاجتمع بهم و ناقشهم حول قضية الدخان و القهوة[10] ثم توجه إلى غزة حيث زار قبر هاشم الجد الثالث لرسول الله صلى الله عليه و اله وسلم وناظر علمائها و ناقشهم ثم توجه نحو العريش[11].

يستشف القاري من هذه الرحلات قوة علم أبي راس واعتزازه به حيث كان يناظر حيث حل و نزل و لا شك أن هذه الرحلات أكسبته رصيدا علميا كبيرا .

3 شيوخه:

تتلمذ أبو راس الناصر على عدد كبير من المشايخ ومن مختلف المذاهب و المشارب حتى أنه ألف في ذلك ثبت سماه "لب أفياخي في عدة أشياخي" و أشار إلى بعضهم في كتابه "فتح الإله "من أشهرهم :

أ_ الإمام محمد بن محمد مرتضى الزبيدي أبو الفيض1145-1205[12] الحنفي صاحب التأليف الشهيرة منها إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين وكتاب تاج العروس في شرح القاموس ، أخذ عنه أبو راس لما فقل من الحج بعضا من البخاري و بعضا من مسلم و بعض الرسالة القشيرية أي سماعا و أجازه الزبيدي في الباقي .

ب- محمد بن محمد بن احمد عبد القادر السنباوي الأزهري المشهور بالأمير 1154-1232 المالكي صاحب الشروح و الحواشي الفقهية و اللغوية و الكتب الجيدة منها كتاب المجموع و شرحه[13].

ج_ عبد الله بن حجازي الشرقاوي الأزهري 1150_1228 الشافعي صاحب الكتب النافعة منها "فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي" .

د_ عثمان بن عبد الله النجدي الحنبلي 1290 ت صاحب كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد أشار له أبو راس بقوله عثمان الحنبلي[14].

هـ_ عبد القادر بن عبد الله المشرفي أبو المكارم ت 1192 \ 1778[15] وهو من كبار شيوخ أبي راس وهو صاحب كتاب "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان كبني عامر" .

4 تلامذته:

لما كان الحافظ أبو راس بهذه المثابة في العلم فلا غرابة أن يتلمذ على يده عدد هائل من الطلبة و إليك ما يقوله بنفسه: "حتى اجتمع عندي في بعض

السنين سبعمائة و ثمانون طالبا "[16]، و لا ينبغي أن تفوتنا فائدة ذكر بعض منهم :

أ_ الشيخ السيد بن عبد الله سقاط المشرفي حفيد الطاهر المشرفي كان عالما فقيها وكان ممن وقع على وثيقة مبايعة الأمير عبد القادر[17].

ب_ السنوسي بن السنوسي بن عبد الله بن دحو بن زرفة وهو الذي افرده أبو راس بتدريس الفقه في حلقة خاصة لما اكتظ المسجد بالطلبة[18].

ج_ عبد القادر بن السنوسي بن دحو شقيق المتقدم فهو تلميذ أبي راس في المنقول و شيخه في المعقول[19].

د_ الشيخ محمد المصطفى بن عبد الله ابن زرفة الدحاوي كان كاتبا للباي محمد الكبير شارك في فتح وهران الثاني 1791 وعين قاضيا عليها إلى غاية 1801[20].

5 تأليفه :

كثيرة هي تأليف الشيخ و كان الحامل له على الإعتزاز حتى قال عن نفسه أنه لا يعلم أحدا أكثر تأليفا منه إلا ما كان من السيوطي[21]. وقال الشيخ ابن بكار المعسكري:"بلغت مؤلفاته الفائقة نحو مائة و اثنين و ثلاثين تأليفا[22]

وقد ذكر أبو راس جملة من تأليفه في فتح الإله فبلغت ستين كتابا و نيفا و هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن كتاب "فتح الإله" لم يكن من أواخر ما ألف الشيخ بل الظاهر أنه ألف بعده كتبا أخري.

الواقف على كتب أبي راس يدرك تنوع الفنون التي تطرق إليها حيث كتب في التفسير و الحديث و الأصول و الفقه و المنطق و اللغة و التصوف و الكلام و التاريخ و الأنساب و الرسم القرآني و الطب وغيرها

6 محنة الشيخ أبي راس الناصر :

ما كان للشيخ أن يتخلف عن سنة الله في الصالحين فامتحن مرتين في حياته الأولى خلال حروب درقاوة 1803 – 1816 حيث قال:" ثم عمتنا فتنة درقاوة و أنا لم نكن فيها كما قال الشيخ عامر الشعبي للحجاج وقد خطبتنا فتنة

لم نكن فيها أتقياء بررة و لا أقوياء فجرة فاتصلت علينا أواصر النكبات و البليات من الخوف و الجوع و الورع الذي في الفؤاد مودوع ، و قد ناداني لسان الحال بقول دع الدفاتر للزمان الفاتر فطرحت الكتب بمتروك مكان واستمر عليها النسيان حتى نسجت عليها عناكب الهجران"[23] .

المحنة الثانية كانت بسبب تأليف ألفه في النسب حيث نفى النسبة إلى الجانب النبوي الشريف عن بعض أهل المنطقة المعروفين بالشرف مما أدي إلى غضبهم عليهم و حرق كتبه ، وفي ذلك يقول صاحب القول الأحوط:"بعد موته بأمد حصل له نقمت عند أهل الراشدية و سببه أنه ألف كتابا في النسب و صحح فيه من هو شريف من غيره فحصل الإنكار عليه"[24].

7 تولى الشيخ منصب القضاء:

القضاء لغة هو القطع و الفصل أما اصطلاحا فيرى ابن خلدون ان القضاء هو " منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي و قطعا للتنازع ..... بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب و السنة "[25]، وعليه فالقاضي هو حاكم شرعي له دور هام في المحاكم التي تطرح فيها القضايا المتعلقة بالأهالي في مختلف الميادين سواء كانت مدنية أو اقتصادية تخص المعاملات التجارية كما أنه يلعب دورا في توجيه الوظائف الدينية و الإشراف على الأوقاف وتعيين القائمين عليها[26] ، و تأتي وظيفة القضاء بعد الفتوى من حيث الأهمية لذا اعتذر بعض الفقهاء عن تولى منصب القضاء إمام خوفا من عدم أهليتهم لها أو تقديرا لخطورتها[27].

تقلد الشيخ أبوراس الناصر بنواحي غريس _ معسكر_ مهمة القضاء على يد الشيخ محمد بن مولاي على قاضى معسكر[28] مدة عامين ، يقول العربي المشرفي :" وكان قاضيا على أيديهم _ العثمانيين_ معدودا من أرباب دولتهم "[29]، ثم سرعان ما عزل من منصبه هذا نتيجة فتنة درقاوة .

ويظهر أن الشيخ لما تولى منصب القضاء توقف عن التأليف نتيجة لإنشغاله بأمور الحكم و الفصل بين الناس و دليل هذا قوله :" وعدت لما كنت قد هجرت "[3] وذكره لقول الإمام ابن رشد القرطبي التالي : " كنت ولاني

السلطان على ابن يوسف ابن تاشفين القضاء فلم أجد سعة للتأليف لكثرة شوائب القضاء و نوائبه و شططه ومتاعبه ولما عزلني و ولى مكاني أبا القاسم بن حمدين حينئذ تفرغت للشرح العتبية المسمى بالتحصيل و البيان "[31] ، يظهر من هذين النصيين أن الشيخ ارتاح من متاعب القضاء بعد عزله و تفرغ لعملية التأليف كما هي عادته أي أن ما كان ليعود عليه بالضرر وهو العزل من هذا المنصب المهم عاد عليه بالخير .

8 وفاة الشيخ أبي راس الناصر :

توفي الشيخ رحمه الله يوم الأحد 15 شعبان 1238 الموافق لـ 27 أبريل 1823م وقد تجاوز التسعين سنة ودفن قرب داره ومسجده حيث ضريحه المعروف به اليوم[32] ، وسبب وفاته كما ذكره مسلم بن عبد القادر هو مرض الطاعون الذي انتشر في تلك السنة[33].

9 من أقوال العلماء في الشيخ أبي راس :

قال الشيخ السنوسي وهو أحد تلامذة أبي راس الناصر " كان شيخنا حافظ عصره و إمام قطره الشائع عنه أنه لا يزيد على مرة في مطالعة الدرس لما منحه الله من سيلان الذهن و سعة الخاطر "[34] ، وقال عنه صاحب القول الأحوط " وهو الأستاذ الإمام القدوة الأسوة الهمام الحافظ الضابط المتقن للرواية و الضوابط ذو القلم الصحيح و اللسان الفصيح الجامع المانع الخاشي الخاشع المنفرد بضوء النبراس مجد الدين القاضي الحافظ أبوراس"[35]، وقال عنه صاحب كتاب ذخيرة الأواخر ما يلي : " وكانت للشيخ أبي راس المذكور اليد الطولى في التاريخ العربي و العجمي من أول الدنيا إلى أخرها وكان في علم الفروع آية و في السيرة النبوية و التاريخ حافظا وحجة رحمه الله "[36] .

قسم دراسة المخطوطة :

1 التعريف بالنظم المحقق :

هو عبارة عن نظم فقهي يتعلق ببعض أحكام القضاء يقع في ورقة أو لوحة واحد في نسخة و في النسخة الثانية يقع في ورقتين ، وقد اشتمل هذا النظم على

تعريف بأنواع الجروح التي تحدث على مستوى الرأس وما يلزم فيها من دية أو قصاص .

لم يرد في المخطوطتين اسم لهذا النظم لكن الشيخ سماه في فتح الإله فقال: "نظم عجيب في فروع قليل نصها مع كثرة الوقوع " ونفس هذا العنوان نجده في البيتين الأول و الثاني من المنظومة

سألني بعض أولي الفروع عن أشياء كثيرة الوقوع

من التي ما نصها غالبا قليل جبته و حسبي الله الوكيل

عدد أبيات هذا النظم ثمانية وخمسون بيتا ابتدئها الناظم بحمد الله و الثناء عليه وختمها بالصلاة على النبي واله وهذه عادته وعادة الكتاب و المؤلفين في تلك الفترة.

2_ وصف المخطوطتين :

لإخراج هذا النظم كما وضعه صاحبه أو قريب منه اعتمدت على نسختين من خزانه الشيخ البشير رحمه الله[37] النسخة الأولى رمزت لها(أ) وهي التي اعتمدت عليها لوضوحها و سهولة قرأت ما كتب فيها جاءت في صفحة واحدة إلا أنها مع المقارنة مع النسخة الثانية و التي رمزت لها (ب) تنقصها الأبيات من البيت 33 إلى البيت 43 ، كما أن صدر البيت رقم 29 ساقط وكذا البيت رقم 39 فهو غير مقروء اللهم إلا كلمتين .

جاءت النسخة(ب) في ورقتين وهي بالمقارنة مع حالة النسخة(أ) في حالة سيئة حيث بالورقتين ثقوب و محو الكلمات التي هي في الحواشي من جراء الرطوبة وهذا مما صعب قرأتها إلا أنها كانت جد مفيدة لتكملة المنظومة .

3 _ نسبة المنظومة لأبي راس :

لا شك في نسبة هذه المنظومة لأبي راس الناصر إذ ورد اسمها في كتابه فتح الإله وورد في بداية النسخة(أ):"قال الشيخ العارف بالله المؤسس الناظم محمد أبو راس أدركنا الله ما درك بفضله" و جاء في افتتاحية

النسخ (ب):"وبعد يقول الراجي عفو ربه المعترف بتقصيره و ذنبه و فضيح عيبه محمد أبو راس بن الناصر وفقه الله بمنه أمين " وكما يظهر هذا هو أسلوب أبي راس الناصر في افتتاحه لكتبه .

4 موضوع المنظومة و قيمتها :

كما يظهر من بداية المنظومة فإن سبب تأليفها هو سؤال بعض الطلبة المهتمين بالفقه أو كما سماهم أبو راس الناصر أولي الفروع عن بعض المسائل الفقهية التي وصفها الشيخ بأنها كثيرة الوقوع لكن تأصيلها و ذكرها في كتب الفقه قليل بالمقارنة مع كثرة وقوعها و هذا إن دل على شيء فإنما يدل على اهتمام أبي راس بخاصة واهتمام علماء الجزائر بالفقه بعامة و الفقه المالكي بخاصة .

نعم قد كان للفقه الإسلامي مكانة خاصة لدي علماء الجزائر في العهد العثماني حيث كان يعتني بكتب الفقه مثل حواشي الشيخين الزرقاني و الخرشي ومختصر خليل لذا نبغ فقهاء عدة و يكفي الرجوع إلى ما سطره أبو راس في كتابه فتح الإله لإدراك ذلك بل كان يتفاخر الفقهاء فيما بينهم بحفظ المتون و الشروح يقول أبو راس الناصري: "وقد طار صيتي بمعرفتي المصنف—أي مصنف خليل- و تحقيقه في المشارق و المغارب "[38] .

يظهر من هذه المنظومة تمسكه بالمذهب المالكي عند الإفتاء خاصة وأن من استفتاه من مالكية و من هنا يظهر مدى مراعاة المفتي لفقه المستفتي خاصة وأن الشيخ كان ملما بالمذاهب الأربعة و يؤكد أبو راس هذه الحقيقة حين يقول : " لا تجوز الفتوى للناس بما لا يعتقدون "[39] .

ويظهر كذلك من خلال هذه المنظومة إحاطة أبي راس بأمهات كتب الفقه المالكي فهو يشير إلى نص الكافي و رسالة ابن أبي زيد القيرواني و بعض شروحها ومدونة سحنون و ابن فرحون وفتوى ابن سهل وفتاوى أيوب في الخفيف و ابن عرفة و البرزولي و صاحب الدرر و الخرشي وغيرها كثير .

و يظهر من هذه المنظومة كون أبو راس الناصر فقيها مجتهدا غير متحجر عما سطره الأولون و إليك نموذج من تعقيباته على من سبقه من أهل العلم:

إطلاق الخرشي في باب الرهن كغيره ليس خال من وهن

كما نستنتج من هذه المنظومة أن السائل الذي استفتى أبا راس أقل ما يقال عنه أنه عارف بالمذهب المالكي و لو كان إنسانا عاديا لما تكلف الشيخ بسرد أقوال العلماء و مقابلة النصوص بعضها بعض فمن حكمة المفتي أن يخاطب المستفتى حسب مستواه العلمي. و ينتقد أبو راس في آخر المنظومة أحوال العلم و العلماء و يصفهم بالتساهل في الفتوى وعدم التثبت و التدقيق في الحكم حيث يقول :

كثير فيها غلط الحكام لعدم البحث عن الأحكام

تساهلا عمتنا بها البلوى ولا تجادلوا عريض الدعوي

إن هذا الانتقاد من أبي راس لعلماء عصره غير مبرر خاصة وان سمت ذلك العصر كما أسلفنا الذكر هي الاعتناء بكتب الفقه و فروعه ولعل الغلط الذي يقصده أبو راس هو الاختلاف الفقهي في هذه القضية – قضية الجروح و القصاص – فحتى داخل المذهب الواحد المالكي هناك خلاف في بعض القضايا وقد أشار إليها الناظم.

لابد هنا أن نشير إلى قضية التعليم و المستوي التعليمي خلال العهد العثماني فنقول و بالله التوفيق يتفق أغلب من زار الجزائر خلال العهد العثماني على كثرة المدارس و انتشار التعليم و ندرة الأمية بين السكان[40]. رغم دلك يعطينا كل من تيدينا و أبو راس الناصر وجهة نظر أخري . فيقول تيدنا واصفا حال العلم و العلماء في معسكر في عهد الباي محمد فيقول : " إنهم شعب جاهل إلى حد انه لا يوجد في معسكر وهي مدينة كبيرة نوعا ما أكثر من مئة شخص يحسنون القراءة وهدا الجهل يعطي احتراما بسيطا إلى كل من يعرف ولو حرفا واحدا من القران."[41] ، و يقول أبو راس الناصر :" إذ في زمن عطلت فيه

مشاهد العلم و معاهده و سدت مصادره و موارده و خلت دياره و مواسمه و عفت أطلاله و معالمه " وإن كان كلا الرأيين يظهر انه مبالغ فيه إلا أنه يمكن توجيه كلامهما بأن التعليم الذي كان موجودا كان خاليا من التعمق في المسائل و تكوين الرأي المستقل مقتصرا على اختصار المطولات و شرح المختصرات. ومقتصرا على كتب الفقه و الفروع و علوم الدين عموما مهملين للعلوم الطبيعية و للطب وغيرها من العلوم العقيلة التى بدأت أوربا في هذه الفترة تعمل على تطويرها نتيجة الثورة الصناعية .

كذلك غياب الحرص على تحقيق الوحدة التعليمية فكل مدرس يدرس ما شاء من الدروس و بطريقته الخاصة فاختلفت الدروس من مدرس لأخر وغاب تحقيق الموازنة بين مختلف العلوم هذه لفتت إلى أوضاع التعليم خلال العهد العثماني رأيت إدراجها كتوجيه لانتقاد أبى راس لحكام – علماء و قضاة – زمانه .

و من خلال هذه المنظومة تبرز شخصية أبي راس الناصر كقاضي فيبين متى يحلف الجاني ومتى يحلف المجنى عليه واثقا من الأحكام التي يصدرها فيقول :

خذها مني إليك نبذة ملفوظة من كتب بنصها مبسوطة

و يقول:

وكل هذا في الخطا يا صاحي و في العمد القود أو الإصلاح

مما عليه للمجنى و الجاني تراضيا خذ صحة البيان

ومما يدل على شخصيته الفقهية المستقلة ترجيحه قول من قال أن لورثة المقتول أو المجروح عمدا الخيار بين القصاص أو الدية والى هذا ذهب جماعة من علماء المالكية مثل أشهب وابن المسيب ، خلافا لما ذهب إليه ابن القاسم من أنه في حالة القتل أو الجرح العمد القصاص فقط[42].

إن هذه المنظومة الصغيرة لهي دليل على اللقب الذي عرف به أبو راس فمن خلالها ومن خلال كثرة الأراء التي أوردها نستشف قدرته على حفظ المتون فمثل هذا التنسيق في الأفكار الذي جاء في المنظومة والانتقال السهل و السلس من كتاب إلى كتاب دليل على قدرة على الحفظ .

كما تظهر هذه المنظومة شخصيته الفقهية القوية الملمة بكل مصادر الفقه المالكي و بالتالي هذا ما أهله لاعتلاء و بلوغ منصب القضاء الذي هو بحاجة لأناس أكفاء أمثال الشيخ أبي راس الذين يصدرون أحكامهم الشرعية و القضائية انطلاقا من قواعد متينة و مؤصلة .

النص المحقق

الحمد لله وحده و الصلاة و السلام على محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم وبعد يقول الراجي عفو ربه المعترف بتقصيره و ذنبه و فضيح عيبه محمد أبو راس بن الناصر وفقه الله بمنه أمين [43]

1- سألني بعض أولي[44] الفروع عن أشياء كثيرة الوقوع

2- من التي[45] ما نصها غالبا قليل أجبته وحسبي الله الوكيل

3- موضحة الرأس[46] خمسون عسجدا[47] فليس فيما قبلها يا ماجدا

4- من كل الست عوض مشهور لمالك[48] وصحبه البرور[49]

5- على ما لنمري[50] في الكاف[51] اسمع هديت لمورد الكاف

6- و واجب في ذلك الحكومة عن اجتهاد من ذوي الحكومة

7- وقيل بل لها دية سامية فستة و ربع في الدامية[52]

8- وضعفها في الحارسة و في السمحاق[53] إحدي و عشرون و للجاني المحاق

9- ثلاثون يا صاحي إرش[54] الباضعة[55] و ستة زدها عليها ناصعة

10-للقتلى المتلاحمة[56] و للغلطات زد خمسة من ذهب معطات

11-وقريب من هذا ما للباجي[57] و يحي حسبك طريق ناجي

12- وقيل فيما رسخت بصغره ثلاثة عوض تلك العقرة

13- وكل هذا في الخطا يا صاحي وفي العمد القود[58] أو الإصلاح

14- مما عليه للمجنى و الجاني تراضيا خذ صحة البيان

15- لكن لبعض شراح الرسالة[59] في جراح العمد هذا رسالة
16- مضمونها العقل كما تقدم في الخطأ إن كان القصاص عدما
17- وفي جراح الجسد الحكومة وأن منقلته المعلومة
18- و عمدها فهو بالقصاص حر في كلها إلا لعظم الخطر
19- لا يسقط الطلب دون ريب وأن برا الجرح من غير عيب
20- كذا الخطأ الذي فيه المقدر إذ ذاك ليس[60] ثابت مقرر
21- و أما ما منه فيه الحكومة لا أدب فيه ولا حكومة
22- إلا إذا كان برا عن شين فاجتهاد الأرش لذاك الشين
23- فان لم يؤخذ قياس للجرح حتى أزيل ما بد[61] من قرح
24- فيحلف الجاني على مقداره ثم يقر بحسب إقراره
25- فان أبى فيحلف المجني عليه ذا قول سحنون المعول عليه
26- وان رد الجرح تلو المشابكة توجه[62] الحلف على من شابكه
27- و الأدب إن كان من أهل العدا وقيل يؤخذ بذا أبدا[63]
28- ولابن فرحون يكن مصدقا إن كان في الحين به تعلق
29- وإن .....[64] من ضارب ضمن في القول لدى المهذب
30- وإن دمى الشخص بجرح ظاهر سجن المدعى عليه الداعي
31- وما لا يضر من نحو ركض ولكمة و وكضة و رضى
32- لا سجن إلا أن بموت المدعى بعد نجاة من عليه قد دعى
33- ولابن سهل[65] في أصح الفتوى لا يجب السجن بنقيص الدعوى[66]
34- بحبسه أيوب قال في الخفيف دعا به عن داع قبل المخيف
35- وظاهر بن عرفة[67] و البرزولي[68] يجعل في الحديد كي لا يجفل
36- وقالوا كان الجاني يحبس يدا[69] حتى يود أهله له الردا
37- و ليس يكفي قوله جرحني في اللوث إن مات ولم يبن
38- حتى يقول هو عمدا أو خطأ هذا هو الحق و غيره خطأ
39- للبساطي النقل.....[70] .....
40- وأن يدوم[71] مرضه ودعوته للموت و إلا حبطت حجته

41- وأن تعدم بينهما العداوة[72] خذها شروطا عليها طلاوة

42- لكن في الذخيرة[73] افهم واسمعا يأتي بها تأكيد صدق المدعا

43- وان أصيب مجاز بين نفر ففعله عليهما فقط ظهر[74]

44- إن جهل الرامي من الجامعين وإلا أخذ من دون دين[75]

45- إن لم يكن ذا في العراك قد دخل و إلا فالأرش على الذي خذل

46- في....[76] أما في التاويل فهدر هذا الذي عليه صاحب الدرر

47- و باطل قولهم إن وصفه هم فعلوا ذاك به فأعرف

48- بعد اليمين بالراقب الشاهد لقيام الفتى مقام الشاهد

49- و سائق و قائد و راكب ضمنوا إن جاء من كل العطب

50- بهذا قيّد قول الرسالة لتصريح الإمام[77] بالمسألة[78]

51- وإطلاق الخرشي في باب الرهن كغيره ليس خال من وهن

52- ذا في نفع إنذار الإعلان لمالك و غيره قولان

53- خذها مني إليك نبذة ملفوظة من كتب بنصها مبسوطة

54- كثير فيها غلط الحكام لعدم البحث عن الأحكام

55- تساهلا عمتنا بها[1] البلوى ولا تجادلوا[2] عريض الدعوى

56- واسأل التوفيق و الوفاق من فاطر السبع العلا الطباق

57- ثم السلام و أزكى الصلاة على محمد فخر الصلات

58- ما بكت سحابة بودق[3] وما تبسم مريض رق

انتهي نص المنظومة

[1] ب : فيه

[2] ب : تجادل

[3] الودق عند جمهور مفسري القران هو المطر وقد وردة هذه الكلمة في القران مرتين

الهامش:

1- أبو راس الناصر : فتح الإله و منته بالتحدث بفضل ربي و نعمته ، تحقيق محمد بن بد الكريم ، المؤسسة الوطنية للكتاب 1990 ، ص 25

2- جبل يقع في منطقة وزغت الواقعة غرب مدينة معسكر

3- قرية شهيرة بين مدينة سعيدة و مدينة بلعباس بالغرب الجزائري

4- أبو راس الناصر : فتح الإله ، ص 19

5- ابو راس : المصدر السابق ، ص 91

6-نفسه ص ص 98-99

8-أبو راس الناصر : فتح الإله ، ص 102

9-نفسه ، ص 109

[10] نفسه ، ص ص 119 -120

[11] نفسه ، ص 120

[12] الزركلي : الأعلام ، ط 05 ، ج 07، دار العلم للملاين لبنان 1980 ، ص 70

[13] الحفناوي أبو القاسم محمد : تعريف الخلف برجال السلف ، ج 02 ، مؤسسة الرسالة المكتبة العتيقة ، ج 02 ، ص 365

[14] أبو راس الناصر : فتح الإله ص 85

[15] نفسه ص 43

[16] نقسه ص 22

[17] يحي بوعزيز : أعلام الفكر و الثقافة في الجزائر المحروسة ، طبعة خاصة ، ج 02 ، دار البصائر الجزائر 2009 ، ص 232

[18] أبو راس الناصر : فتح الإله ص 73

[19] نفسه ص 65

[20] يحي بوعزيز : نفس المرجع ص 233

[21]ابو راس _ فتح الاله ص 182

[22] بلهاشمي بن بكار : كتاب مجموع الحسب و النسب ، مطبعة ابن خلدون :تلمسان 1961 ، ص 13

[23] ابن سحنون الراشدي : الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، تحقيق و تقديم المهدي البوعبدلي ، الجزائر : مطبعة البعث 1973 ، ص 47

[24] جورج دالفان : القول الأحوط مخطوط بمكتبتي ، اللوحة 9

[25] ابن خلدون : المقدمة ، ط 03 ، منشورات دار الكتاب اللبناني بيروت 1968 ، ص 390

[26] رشيدة شدري معمر : العلماء و السلطة و العثمانية في الجزائر ، مذكر ماجستير جامعة الجزائر 2005-2006 ، ص 73

[27] أبو القاسم يعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، طبعة خاصة ، عالم المعرفة الجزائر 2011 ، ص 394

[28] وصفه أبو راس فقال في فتح الإله ص 42 : " جلست في حلقة شيخنا السيد محمد بن مولاي على بن سحنون قاضي أم عسكر لأقرأ الفقه "

[29] العربي المشرفي : ذخيرة الأواخر و الأول فيما ينتظم من أخبار الدول ، دراسة و تعليق عبد المنعم القاسمي الحسني ، ماجستير أصول الدين جامعة الجزائر مارس 2001 ، ص 4

[30] أبو راس : فتح الإله ، ص 25

[31] أبو راس الناصر : فتح الإله، ص 25

[32] الاغا بن عودة المازاري : طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و اسبانيا و فرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر ، دراسة وتحقيق يحي بوعزيز ، ط 01 ، ج 01 ، دار البصائر الجزائر 2007 ، ص 349

[33] مسلم بن عبد القادر ، أنيس الغريب و المسافر ، ص 25

[34] عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج 3 ، لبنان : دار الثقافة ، 1983 ، ص 547

[35] مخطوط القول الأحوط ، اللوحة 9

[36] العربي بن على المشرفي : ذخيرة الأواخر و الأول فيما ينتظم من أخبار الدول ، ص 4

[37] لباس هنا أن ننوه بمكانة شخصية الشيخ البشير فهو البشير بن الحاج قدور بن البشير محمودي ولد الشيخ بقرية عمراوة ببلدية المناور في 3 جوان 1906 حفظ القران الكريم في طفولته ثم رحل طلبا للعلم إلى عدة زوايا حيث بقي بسجرارة مدة خمس سنوات يدرس العلم الشرعي ثم انتقل إلى قرية قريبة من تلمسان ليتم فيها تعليمه جند في صفوف الجيش الفرنسي ضمن الخدمة العسكرية الإجبارية و تعرض للسجن مدة 10 سنوات بتهمة قتل بهائم الكولون وقطع الأشجار بعد إنهائها تفرغ من جديد للعلم و بدا في نسخ المخطوطات في ميادين مختلفة حيث سافر إلى مدن عديدة لا لشيئ سوى لنسخ المخطوطات فتوجه نحو فاس و القيروان وجامع الزيتونة ومن بين النفائس التي يعود للشيخ البشير الفضل في الحفاظ عليها و وصولها إلينا اليوم كاملة نذكر

- مخطوط عجائب الأسفار و لطائف الأخبار فيما جري بوهران و الأندلس للمسلمين مع الكفار حيث أتم نسخه كما هو مسطر في المخطوطة يوم خمسة مارس 1962
- مخطوط الخبر المعرب عن الأمر المغرب و الحال بالأندلس و ثغور المغرب انتهي من نسخه في رجب 1266 هـ
- الدر المهدي لغوثية أبي المهدي انتهي من نسخه في 25 سبتمبر 1961
- المخطوطة التي نحن بصدد دراستها وان لم يشر هل نسخه هو اما لا المهم انه حافظ عليها بمكتبته
- الدرة الأنيقة في شرح العقيقة انتهي من نسخه يوم 24 جويلية 1961

كما يظهر كل هذه المخطوطات هي لشيخ أبي راس الناصري و بالتالي فان للشيخ البشير محمودي فضل كبير و كبير في الحفاظ على الإرث التاريخي و الثقافي لأبي راس الناصر .

[38] أبو راس : فتح الإله ، ص 21

[39] نفس المصدر ص 158

[40] حول هذه النقطة يرجع إلى :

- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ط 6 ، دار البصائر : الجزائر ، 2009
- عميراوي احميده : الجزائر في أدبيات الرحلة و الأسر خلال العهد العثماني ، دار الهدي : الجزائر ، 2003

[41] عميراوي احميده : الجزائر في أدبيات الرحلة و الأسر خلال العهد العثماني ، دار الهدي : الجزائر ، 2003 ، ص 83

[42] الإمام الحطاب : مواهب الجليل لشرح مختصر خليل ، ضبطه وخرج آياته و أحاديثه: زكريا عميرات ، ج 8 ، مكتبة دار الباز : مكة المكرمة ، 1995 ، ص 295 .

[43] نسخة (أ) : "الحمد لله و صلى الله على سيدنا محمد و على اله و صحبه وسلم

قال الشيخ العارف بالله المؤسس الناظم محمد أبو راس أدركنا الله ما درك بفضله"، رغم أن النسخة (أ) هي التي اعتمدت عليها في تحقيق النظم إلا أني رأيت أن افتتاحية النسخة (ب) هي نسج الشيخ وكلامه المعهود أما ما ورد في النسخة (أ) فيظهر أنه من كلام ناسخ النظم و الله اعلم بالصواب .

[44] أ : أولوا

[45] أ : عني

[46] الموضحة هي الضربة التي كشفت عظم الرأس

[47] خمسون دينار ذهب

[48] أبو عبد الله مالك بن انس بن مالك إمام دار الهجرة و صاحب المذهب المالكي الواسع الانتشار ولد سنة 93 هـ و توفي سنة 179 من أشهر مؤلفاته كتاب الموطأ انظر

- الذهبي : سير أعلام النبلاء ج 8 ، مؤسسة الرسالة ، ص ص 48_135

[49] لمعرفة سيرة العلماء المالكية يرجى مراجعة : الديباج المذهب في معرفة أعيان وعلماء المذهب لابن فرحون المالكي وكتاب شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف

[50] الحافظ يوسف بن عبد الله بن عبد البر أبو عمرو النمري القرطبي المالكي 987-873

[51] ابن عبد البر النمري : الكافي في فقه أهل المدينة المالكي ، ط 2 ، دار الكتب العلمية بيروت ، 1992 ،ص 600

[52] و هي الضربة التي ظهر دمها ولم يسل

[53] السمحاق هي الضربة التي قاربت العظم وبينها وبينه قليل من اللحم

[54] لأَرْشُ : الدَّيَةُ أَي دِيَةُ الجِرَاحَاتِ سُمِّيَ أَرْشاً ؛ لأَنَّه من أَسْبَابِ النِّزَاعِ وقيل : إن أَصْلَه الهَرْشُ نقله ابنُ فارس ومنه قولُ ابنِ الأَعْرَابِيّ : يقولُ انتظرني حَتّى تَعْقِل فليسَ لكَ عِنْدَنا أَرْشٌ إلاّ الأَسنَّة أَي لا نَقْتُلُ إنْسَاناً فنَدِيَه أَبَداً . وقال أَبو مَنْصُور : أَصْلُ الأَرْشِ الخَدْشُ ثمّ يُقالُ لما يُؤْخَذُ دِيَةً لها : أَرْشٌ وأَهْلُ الحِجاز يُسمُّونَه النَّذرْ وقد أَرَشْتُه أَرْشاً : خَدَشْتُه

[55] وهي الضربة التي أبضعت اللحم و لم تصل إلى العظم

[56] المتلاحمة هي الضربة التي تغوص في اللحم غوصا بالغا و تقطعه في عدة مواضع

[57] أبو الوليد الباجي هو القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي، الأندلسي، القرطبي، الباجي، الذهبي، المالكي إمام أشعرى،وصاحب التصانيف.ولد سنة 403 وتوفي سنة 474

[58] القود بمعني القصاص

[59] كتب الرسالة لابن أبي زيد القيرواني وقد شرحها الكثيرون مثل الشيخ صالح عبد السميع الأبي الأزهري و كتاب الثمر الداني في تفريب المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني وكذا كتاب الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد

القيرواني لأحمد بن غانم بن سالم شهاب الدين النفراوي الأزهري المالكي ت 1126 هـ وكتاب قطف الجنى الداني شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني لعبد المحسن بن محمد وغيرها من الشروح عموما الشروح كثيرة قديما وحديثا لكن الأكيد هو انه يجب التريث لا العجالة في شرح الرسالة .

[60] ب : دين

[61] ب: به

[62] ب: مضمونه

[63] ب : وقيل يوخذ به إذا برا

[64] مقدار ثلاث كلمات غير واضح في النسختين

[65] في نسخة (ب) ابن فرحون

[66] من 33 إلى 43 من النسخة (ب) وهو غير موجود في النسخة (أ)

[67] محمد بن عرفة الورغمي التونسي المالكي أبو عبد الله (803_716 هـ / 1316_1400 م) إمام تونس و عالمها و خطيبها في عصره

[68] الشيخ الإمام المحدث الحافظ الرحال مفيد الجماعة زكي الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أبي يداس البرزالي الإشبيلي ولد تقريبا سنة سبع وسبعين وخمسمائة . انظر ترجمته : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ج 23 ، ص 55

[69] ب : مدا

[70] بقية هذا البيت غير واضح في النسخة (ب) و هو غير موجود في (أ)

[71] في نسخة(أ) يدمي

[72] ب : وان قوم تقدم بينهما العداوة

[73] كتاب الذخيرة في الفقه المالكي للإمام احمد بن إدريس بن عبد الرحمن أبو العباس شهاب الدين المالكي (...- 684)

[74] ب : معا ضاهر

[75] أي أنه إذا جرح الرجل جماعة وجهل من جرحه فله أن يقتص ممن شاء وهذا قول سحنون في المدونة انظر :

- المدونة الكبري للإمام مالك بن انس رواية الإمام سحنون ، ج 9 ، مطبعة السعادة : مصر ، 1323 هـ ، ص 372

في النسخة كلمة غير مفهومة صورتها النبغي [1]

[76] المقصود بالإمام هو ابن أبي زيد القيرواني أبو محمد عبد الله بن أبي زيد المالكي القيرواني، واسم أبي زيد هو عبد الرحمن، سكن القيروان، وكان إمام المالكية في وقته وقدوتهم، وجامع مذهب مالك، وشارح أقواله كانت وفاته سنة 386 هـ انظر:

- الذهبي : سير أعلام النبلاء ، 10/17.

[77] راجع الثمر الداني في تقرب المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني : الشيخ صالح عبد السميع الأبي الأزهري ، دار الفكر ، ص 584

[78] الإمام محمد بن عبد الله الخراشي المالكي 1010-1101 أول من تولى مشيخة الأزهر له شرحان على مختصر خليل كبير و صغير كما شرح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر انظر الأعلام للزركلي 6 /241